حول رحلة الى أسرة « أبى القاسم الشابى »

.. وملاحظات اخرى ... (*)

وقع نظرى على ما جاء تحت عنوان : « شقيق ابى القاسم الشابى وابنه يكشفان « لليقظة » أسرارا جديدة عن حياته وموته» بتاريخ ١٩٧٥/١/٦ بالكويت . فشرعت فى قراءته بمزيد من التهيؤ والتطلع .. ولكن سرعان ما شعرت ـ وقبل الانتهاء من القراءة ـ ان التهيؤ والتطلع راحا يهربان منى .. لان كلمتى « أسرار » و « جديدة » كان لهما فى هذا الحديث وضع « البناء » الذى أريد له القيام على الرمال !! ـ بدون جهود مفيدة ، وبلا أساس ـ فلن يكون . ولهذا لم نحصل على « أسرار » ولا على « جديدة » .

١ ـ لماذا العقبات وانعدام النتائج ؟

وعندئذ طفق ذهنى يلحظ او يجمع « الاسباب » ـ وقد أقول الاخطاء ـ التى فرضت على « الحديث » خلوه تماما من النتائج المرجوة ، وبقى « العنوان » يدعيها . ! مما يشير الى انه وضع ـ متفائلا ـ قبل بداية الرحلة أو قبل نهاية « اللقاء » وأصر السيد « س . م » على التشبث بالعنوان بدون تحوير أو تغيير لاننا ـ القراء ـ سوف نسأله : ما هى الاسرار الجديدة التى كشفها لنا شقيق « الشابى » وابنه عن حياته وموته ؟ !

ولو كان فى « الحديث » سر جديد ، واحد ، لاستسمحت القراء ، واعتذرت للسيد « س.م» لاذكره اليهم مرة ثانية . .

(*) مجلة الفكر ـ فيفرى . افريل ١٩٧٦ تونس .

ولعله يعتبر ما ذكره له السيد « عبد الحميد » من ان « الشابى » كان يساعده على نسخ ديوانه « أغانى الحياة » صديق له فى « حامة الجريد » ـ بالجنوب التونسى ـ لا يذكر اسمه . . سرا جديدا .! لان ذلك ذكر فى مقدمة الديوان ، ولعله من « المفيد » لو عرف القراء ـ المختصون ـ من هو هذا الصديق * ؟ وما هى ثقافته ؟ وهل تدخل لتغيير بعض الكلمات أو المعانى أو العناوين أو لترتيب بعض الابيات داخل بعض القصائد ، أو بعض القصائد داخل الديوان ؟ . ولماذا هذا الصديق بالذات ؟ اذ قد يفيد معرفة مثل « هذا » بعض الدارسين .

وهل يعتبر ـ أيضا ـ السيد « س.م » ما ذكره له ابنه «جلال» من أن « الشابى » كان يعانى من تضخم فى القلب ، وهو سبب وفاته ، وليس بمرض فى الصدر ؟.

لان هذا معروف ـ أيضا ـ فى الكتب التى تحدثت عنه ، وكما اشار الى ذلك شقيقه المرحوم الاستاذ « محمد الامين الشابى » فى المقدمة التى كتبها لديوان « أغانى الحياة » سنة ١٩٥٤ ، وقد نشرت فى الطبعة الجديدة للديوان سنة ١٩٧٠.

أما ما جاء فى الحديث ـ بعد ذلك ـ فهو لا يخرج فى عمومه عن بعض الاستطرادات التى قد نستعين بها ، أو من خلالها على صياغة بعض الاسئلة ، أو توارد بعض الخواطر التى تفتح أبوابا جديدة للحوار .. لو كانت الرؤية واضحة ـ ولا اقول الرؤيا ـ والمهمة

(*) فى عدد خاص بأبى القاسم الشابى من مجلة « الفكر » التونسية . جانفى ١٩٧٥ جاء ما يلى : « بقرية الشابية ، كان الشابى يجلس فوق رمالها البيضاء جاعلا فوق ركبتيه مخدة وكراسا وهو يكتب وانا أملى عليه الديوان ، حتى رتبه فى ثلاث كراسات .. » المقال : « على هامش الذكرى » محمد الازهر عبد الحميد الشابى .

محددة والاحاطة بالمتحدث عنه ـ من خلال الدراسات السابقة بما فى ذلك آثاره ـ شاملة حتى نحصل على النتائج التى نطمئن اليها ، لرحلتنا أو لحديثنا ، عندما نتصدى لمثل هذه المهمات أو اللقاءات أو التحقيقات ، بحثا عن « الحقيقة » أو عن البقايا المجهولة لبعض الظواهر والقضايا . . فنكمل « النقص » أو نحدث تغييرا وتعديلا وتصحيحا ـ اذا لزم ـ فى السابق . وهذا يتأتى على يدى من لهم خبرة ، ومعاناة ، واستيعاب لاساسيات التحقيق الادبى أو السبق الصحفى ، به يقدر صاحبه على انتقاء الاسئلة واعدادها ملائمة لتوليد معلومات طريفة ، وأسرار جديدة . .

فيكون فى مستوى « المشروع » الذى تصدى له تقديرا للمسئولية: ومراعاة لهذا يذكر الآتى :

اين التخطيط للرحلة ، والاعداد لها زمنيا وذهنيا ؟ .

المفهوم ـ مما قرات ـ أن « فكرة » الالتقاء بأسرة « الشابى » خرجت من مجلة « اليقظة » (*) بالكويت ـ وحسب اطلاعى ـ لاول مرة يخرج الى حيز التنفيذ مشروع فكرة «الالتقاء بأسرة الشابى» لاستقصاء أو لمعرفة ما لم يعرف عنه بعد . .

وقبل الرحلة من «س.م » ورفيقه ـ الذى اختفى صوته تماما من الحديث ـ الى تونس عن طريق بيروت ، لهذا الغرض الصحفى ـ الادبى المفيد ، لو تم على وجهه المطلوب وأتى بنتائجه الممكنة والمرجوة ، كان لابد من التوقف لحظات أو ساعات قبل

(*) عفوا لقد قرات بصفحة « فكروفن » بجريدة « الصباح » التونسية (السبت ٧٥/١/٢٥) حديثا فهمت منه : أن اللقاء بأسرة الشابى تم مع مجلة « الصياد » اللبنانية . دون اشارة من « اليقظة » الى ذلك . ! فالى من المقابلة اذن يا ترى ؟؟ لا سيما وفى الحديث ما يشير الى أن الرحلة ابتدات من بيروت. أين الحقيقة ؟ .

الشروع فى الرحلة من أجل الاتصال بالملحق الثقافى الاستاذ الشاعر « الشاذلى زوكار » بسفارة تونس بالكويت ، لمعرفة الامكانات المتاحة هنالك والتى تساعد على نجاح رحلة « الالتقاء » الادبية داخل تونس . لان الاستاذ «زوكار» على معرفة بالنشاطات الادبية والصحفية هناك من الخمسينات ، وعلى اتصال بنواديها وبجمعياتها الادبية فهو الذى انشأ « رابطة القلم الجديد » ، بالاضافة الى أن تونس أصبحت فى السنوات الاخيرة من البلاد النامية التى تبذل عناية كبيرة فى الاهتمام بالسياحة ، وما يلقاه الزائر من رعاية وتسهيلات وخدمات سياحية ، تستهدف راحته واطمئنانه واستفادته : متى راعى الدقة والنظام فى تحركاته . ولو أخذ فى الاعتبار شيء من هذا ، لامكن أن يضمن للرحلة الكثير من النجاح . وعندئذ نتفادى الكتابة فى مطلع « الحديث » بهذا الاسلوب المتباكى الذى يذكرنا بـ « قفا نبك » : « لاول مرة خيل الينا قطعنا آلاف الكيلومترات من بيروت الى تونس سدى ، وأن البحث عن العنقاء ، والخل (أى الودود) أيسر بكثير من البحث عن أسرة الشاعر « ابى القاسم الشابى » وكان يعز علينا أن نعود الى بيروت ، كما عاد حنين خلو الوفاض ، وبدون طائل . » .. « عدنا من حيث أتينا والمرارة تعصر قلوبنا » .

ولماذا كل هذا النغم الحزين !! وهل نحن أمام هزيمة ١٩٦٧ أم هل احترقت روما ؟ ان التهويل فى غير مكانه يثير فى الطرف الآخر الضحك ويجرد الموضوع المتحدث عنه من قيمته الحقيقية ، لان جدودنا تركوا لنا فى البلاغة والاساليب العربية قواعد ابتدائية : «لكن مقام مقال». لكننا نسمع كثيرا ــ ولا نحسن الاستماع ــ ونتكلم أكثر ، ولا نفعل الا القليل . ! مع أن أسلوب اللغة العربية يعطى الاولوية فى الجملة لكلمة « الفعل » لكن بعض الصحافة العربية اعتادت التهويل ، والاثارة ، والبعد عن الامانة فى مخاطبة الوجدان والعقل العربى ، فعم الضلال ، مثلما كثر

أبى القاسم الشابى » أن يدلوا بعثة مجلة « اليقظة » القادمة من الخليج العربى أو من الشرق العربى على أسرة الشابى أينما كانت بتونس ،وبدون دخول فى « دوامة » كما قيل: « .. لكن الدوامة التى ودعناها فى تونس العاصمة ، لم تنسنا ، بل انها لاحقتنا على مدى كل هذه المسافة الشاسعة التى قطعناها بحثا عن أسرةالشابى فى مسقط رأسه ، هنا أيضا لاحقتنا الشفاه المقلوبة والدهشة ، ولم يستطع أحد أن يعطينا الجواب الشافى . » وهذا لاننا نهرع للعمل بدون تخطيط ، فتأتى النتائج دون المؤمل ، عندئذ نهرع ثانية الى البكاء والتهويل ، ونلقى باللوم على غيرنا ، أو نوحى بذلك.

ب ـ كذلك كان فى الامكان الاستفادة أو الاستعانة بالاستاذ « محمد الحليوى » وهو احد أصدقاء الشابى والمغرمين به ـ والباقى على قيد الحياة ـ ومعرفته به متينة وبأسراره دقيقة ، حيث كانت بينهما رسائل متبادلة تخبر عن صداقة عظيمة ، أما الاستاذ « ابوالقاسم محمد كرو » (*) وهو أول من درس « الشابى » وعرف به فى الشرق العربى فى ذلك الوقت من خلال كتابه الاول عنه « الشابى .. حياته وشعره » وله كتب أخرى عنه .

ج ـ الالتقاء بالاسرة ـ فى حدودضيقة ـ كما لم يأت بجديد..

٣ ـ عدم القدرة على توليد المعلومات .. وحيوية الحوار :

الاسئلة التى طرحت على الاستاذ « عبد الحميد » شقيق ابى القاسم الشابى لم تكن كافية لمعرفة ما يمكن ـ أو ما ينبغى ـ معرفته عن أخيه ، وهو الذى عرفه شابا : « ويصحبنى معه فى

(*) نشر له « دليل موجز » من مصادر الشابى ومراجعه . مجلة الفكر أبو القاسم الشابى » عدد خاص شهر يناير ـ جانفى ١٩٧٥ تونس .

الشروع فى الرحلة من أجل الاتصال بالملحق الثقافى الاستاذ الشاعر « الشاذلى زوكار » بسفارة تونس بالكويت ، لمعرفة الامكانات المتاحة هنالك والتى تساعد على نجاح رحلة « الالتقاء » الادبية داخل تونس . لان الاستاذ «زوكار» على معرفة بالنشاطات الادبية والصحفية هناك من الخمسينات ، وعلى اتصال بنواديها وبجمعياتها الادبية فهو الذى أنشأ « رابطة القلم الجديد » ، بالاضافة الى أن تونس أصبحت فى السنوات الاخيرة من البلاد النامية التى تبذل عناية كبيرة فى الاهتمام بالسياحة ، وما يلقاه الزائر من رعاية وتسهيلات وخدمات سياحية ، تستهدف راحته واطمئنانه واستفادته : متى راعى الدقة والنظام فى تحركاته . ولو اخذ فى الاعتبار شيء من هذا ، لامكن ان يضمن للرحلة الكثير من النجاح . وعندئذ نتفادى الكتابة فى مطلع « الحديث » بهذا الاسلوب المتباكى الذى يذكرنا بـ « قفا نبك » : « لاول مرة خيل الينا قطعنا آلاف الكيلومترات من بيروت الى تونس سدى ، وأن البحث عن العنقاء ، والخل (أى الودود) أيسر بكثير من البحث عن أسرة الشاعر « ابى القاسم الشابى » وكان يعز علينا أن نعود الى بيروت ، كما عاد حنين خلو الوفاض ، وبدون طائل . » .. « عدنا من حيث أتينا والمرارة تعصر قلوبنا » .

ولماذا كل هذا النغم الحزين !! وهل نحن امام هزيمة ١٩٦٧ أم هل احترقت روما ؟ ان التهويل فى غير مكانه يثير فى الطرف الآخر الضحك ويجرد الموضوع المتحدث عنه من قيمته الحقيقية ، لان جدودنا تركوا لنا فى البلاغة والاساليب العربية قواعد ابتدائية : «لكن مقام مقال». لكننا نسمع كثيرا ــ ولا نحسن الاستماع ــ ونتكلم اكثر ، ولا نفعل الا القليل . ! مع ان اسلوب اللغة العربية يعطى الاولوية فى الجملة لكلمة « الفعل » لكن بعض الصحافة العربية اعتادت التهويل ، والاثارة ، والبعد عن الامانة فى مخاطبة الوجدان والعقل العربى ، فعم الضلال ، مثلما كثر

الارتزاق بـ « الكلمة » والبعد بها عن « التنوير » .

ان الذى يقرأ « الحديث » يدرك ، وكأن السيد « س.م » يريد أن يلقى بالمسؤولية على التونسيين الذين صادفهم بالمقهى ، أو بالشارع عندما لم يتصرفوا ـ اليه ـ بهذه الطريقة «السحرية» : « شبيك لبيك ، أسرة الشابى بين يديك » ! ما هذا ! ؟ « ما هكذا تؤكل الكتف » أيها الاخ !

ولعلك اطلعت على العديد من التحقيقات والاحاديث واللقاءات الصحفية ـ الادبية وما لها من استعدادات ، ومن تهيئة ذهنية وزمنية ، حتى لا تنعدم النسبة بين « المصاريف » المادية وبين « المكاسب » المعنوية .

هل خطر على بال السيد « س.م » تحديد موعد قبل الالتقاء بسرة الشابى .

لان المتعارف عليه فى المجتمع المعاصر ، حين نريد مقابلة شخص أو زيارته فى منزله ، نسعى أولا لتحديد « موعد » معه ـ مراعاة لكل الظروف ، وكل الاستعدادات ـ لا سيما اذا كانت « أسرة » كاملة ، وتفصلنا عنها آلاف الاميال ، ونحن نعلق على الالتقاء اهمية ما .. أو سبقا أدبيا .

لكن يظهر من « الحديث » لم يكن فى النية مراعاة ظروف الآخرين .! ـ والفردية طالما حدت من نجاح مشروعاتنا ـ والزمن، زمنه وحده !. حيث يقول : « كنا فى صراع مع الزمن ، وكان علينا أن نغادر تونس الى بيروت فى الغد ، ولم نكن قد عثرنا بعد على أى فرد من أفراد أسرة الشابى . وصلنا تونس ظهرا » .

اذن يظهر هنا عدم التخطيط للرحلة زمنيا .

٢ ـ معالم « تنير » لم يلتفتا اليها ! .

ا ـ كان في الامكان الاستفادة من « نادي ابي القاسم الشابي » وهو على ما اعتقد يبذل عناية خاصة بالشاعر ـ الى جانب اهتماماته الاخرى ـ فقد اقيمت له عدة مهرجانات ، وفي مناسبات مختلفة .. والسيد « س.م » اشار الى بعض هذا مدعيا لنفسه المعرفة اكثر بحياة الشابي ، وعلى بعض ابناء تونس الجهل بها ، الامر الذي حز في نفسه مع رفيقه فقال : « على ان الذي حز في نفوسنا ان كثيرا من ابناء تونس الخضراء لا يعرفون عن حياة شاعرهم ابي القاسم الشابي الذي يحتفلون الآن بذكرى وفاته الاربعين ، لا يعرفون الا النزر الذي لا يفي بضالتنا ولا يروى ظمأنا .. » وقال بعد ذلك ، وكأنه يرجم بالغيب او كأن لاسئلته ذكاء خارقا ، او هي المفاتيح لكل ما اغلق حول « الشابي » مستعملا تعابير مطلقة ، يبتعد عنها الانسان « المثقف » بل نصف المتعلم فيقول : « وكان كثير منهم يقلب شفتيه باستغراب حين نسأله عن ابناء « الشابي » بل ان بعضهم كان يقول والدهشة تعقد عقله (المعروف : الدهشة تعقد لسانه ، ولعل هذا من الاختراعات الجديدة في الكليشيه) وهل تزوج الشابي ؟ لقد كان مريضا ، ومات قبل الثلاثين . ولانعتقد انكم تبحثون عن شيء موجود في هذا العالم » ولعل التعبير الاخير بعيد عن طبيعة التونسي وعن ميله الى « الاعتدال » والمنطق ، وعدم المبالغة .

معذرة اذا سألت : هل جاء السيد «س.م» يرغب « الالتقاء » بأسرة الشابي ، وبدون موعد سابق ؟ . أم جاء ليختبر ابناء تونس فيما يعرفونه عن شاعرهم ؟!

واميل الى ان اكون لطيفا معه : الحق ، اقوله ، له : لا يعرف ماذا يريد ؟ . ولا كيف يريد ؟ . لانه كان في امكان اعضاء « نادي

ابى القاسم الشابى » ان يدلوا بعثة مجلة « اليقظة » القادمة من الخليج العربى او من الشرق العربى على اسرة الشابى أينما كانت بتونس ،وبدون دخول فى « دوامة » كما قيل: « .. لكن الدوامة التى ودعناها فى تونس العاصمة ، لم تنسنا ، بل انها لاحقتنا على مدى كل هذه المسافة الشاسعة التى قطعناها بحثا عن اسرةالشابى فى مسقط رأسه ، هنا ايضا لاحقتنا الشفاه المقلوبة والدهشة ، ولم يستطع أحد ان يعطينا الجواب الشافى . » وهذا لاننا نهرع للعمل بدون تخطيط ، فتأتى النتائج دون المؤمل ، عندئذ نهرع ثانية الى البكاء والتهويل ، ونلقى باللوم على غيرنا ، او نوحى بذلك.

ب ـ كذلك كان فى الامكان الاستفادة أو الاستعانة بالاستاذ « محمد الحليوى » وهو أحد أصدقاء الشابى والمغرمين به ـ والباقى على قيد الحياة ـ ومعرفته به متينة وبأسراره دقيقة ، حيث كانت بينهما رسائل متبادلة تخبر عن صداقة عظيمة ، اما الاستاذ « ابوالقاسم محمد كرو » (*) وهو أول من درس « الشابى » وعرف به فى الشرق العربى فى ذلك الوقت من خلال كتابه الاول عنه « الشابى .. حياته وشعره » وله كتب اخرى عنه .

ج ـ الالتقاء بالاسرة ـ فى حدودضيقة ـ كما لم يأت بجديد..

٣ ـ عدم القدرة على توليد المعلومات .. وحيوية الحوار :

الاسئلة التى طرحت على الاستاذ « عبد الحميد » شقيق ابى القاسم الشابى لم تكن كافية لمعرفة ما يمكن ـ أو ما ينبغى ـ معرفته عن أخيه ، وهو الذى عرفه شابا : « ويصحبنى معه فى

(*) نشر له « دليل موجز » من مصادر الشابى ومراجعه . مجلة الفكر ابو القاسم الشابى » عدد خاص شهر يناير ـ جانفى ١٩٧٥ تونس .

نزهاته » وهو ـ كما جاء فى الحديث معه ـ يعد عنه «الدكتوراه» وكان يجب أن نعرف ـ فى خطوطه العريضة ـ ماذا بقى عن الشابى يصلح لاعداد دكتوراه ؟ . وماذا له من أسرار عن طفولته ، وتربيته، وثقافته ، وحياته الاجتماعية ، وعلاقاته بأسرته .. لننظر فى ذلك كله من خلال شعره ، رغبة فى التفسير السليم وارتباطه بحياته لا سيما وقصائد الديوان مؤرخة .

لان « الشعر » لديه يعبر عن ذاته ويطهرها ، ولا يقوله الا اذا ارتضاه ضميره :

شعرى نفاثة صدرى ... ان جاش فيه شعورى
لولاه ما انجاب عنى ... غيم الحياة الخطير

* * *

حسبى اذا قلت شعرا ... أن يرتضيه ضميرى

كما ذكر السيد « س.م » انه التقى بالاستاذ « جعفر ماجد » وعرف منه بأنه أيضا يعد دكتوراه عن أبى القاسم الشابى .

ولعله كان على السيد « س.م » أن ينتبه لاحد الدارسين ، ليسأله ماذا ترك أحدهما للآخر من جوانب او فجوات ، سوف لن يتناولها بالدراسة وهى تصلح لاعداد دكتوراه ثانية . فى بلد واحد ، وعن شاعر واحد ، وفى فترة زمانية واحدة ومن زميلين يدرسان فى كلية واحدة . اذا عرفنا ان انتاج « الشابى » المنشور ديوان شعر واحد هو « أغانى الحياة » ومحاضرة عن « الخيال الشعرى عند العرب » طبعت فى كتاب صغير ، ثم مذكراته طبعت تحت عنوان : «مذكرات الشابى» ومقدمة كتبها لديوان «الينبوع» لصديقه المرحوم «أحمد زكى ابو شادى» طبع بالقاهرة سنة ١٩٣٤

قد كنت فى زمن الطفـولة ، والسذاجة والطهور
احيا كما تحيـا البلابل ، والجداول ، والزهور
لا نحفـــل ، الدنيـا تدور بأهلهـا ، او لا تدور

كما انه يتحدث عن « الام » فى شعره بما لا يدع ريبة او حيرة او شفقة ، حيث عاش حياة طبيعية مع « أمه » يجـد فيها كل ما تبذله وما تقدمه « الام » عن طواعية وتلقائية من محبة وعطف وحنان ورعاية وعناية ، وفناء فى اسعاد ابنها ، حيث يقـول فى قصيدة « قلب الام » ـ وقبل وفاته بثلاث سنوات تقريبا ـ والتى استغرقت ست صفحات فى الديوان :

أعرفت هـذا القلب فى ظلماء هاتيك اللحود ؟
هو قلب أمك ، أمك السكرى بأحزان الوجـــود

* * *

هـــو ذلك القلب الذى مهما تقلبت الحيـــاة
سيظل يعبـدذكرياتك : لا يمـــل ولا يميـــل

ويقول فى قصيدة « حرم الامومة » : ـ وقبل وفاته بحوالى شهرين ـ

حرم الحياة بطهرها وحنانهـا هل فوقه حرم أجل واقدس؟!
بوركت يا حرم الامومة والصبا كم فيك تكتمل الحياة وتقدس

كذلك نجد شعره فى رثاء والده ، وعمره عشرون سنة ـ قبل وفاته بخمس سنوات ـ فى قصيدته : « يا موت » يدلنا على الود المتبادل بينهما ، وعلى المحبة العميقة المقدسة بين « الابن وابيه » الى درجة أنه رام الموت وتمناه بدل ان يعيش يتيما محروما من ابيه ، لانه كل شىء فى حياته فهو : حبه ، وموطن سره ، وغابه ،

نزهاته » وهو ـ كما جاء فى الحديث معه ـ يعد عنه «الدكتوراه» وكان يجب أن نعرف ـ فى خطوطه العريضة ـ ماذا بقى عن الشابى يصلح لاعداد دكتوراه ؟ . وماذا له من أسرار عن طفولته ، وتربيته ، وثقافته ، وحياته الاجتماعية ، وعلاقاته بأسرته .. لننظر فى ذلك كله من خلال شعره ، رغبة فى التفسير السليم وارتباطه بحياته لا سيما وقصائد الديوان مؤرخة .

لان « الشعر » لديه يعبر عن ذاته ويطهرها ، ولا يقوله الا اذا اوتضاه ضميره :

شعرى نفاثة صدرى ان جاش فيه شعورى
لولاه ما انجاب عنى غيم الحياة الخطير

* * *

حسبى اذا قلت شعرا أن يرتضيه ضميرى

كما ذكر السيد « س.م » انه التقى بالاستاذ « جعفر ماجد » وعرف منه بأنه ايضا يعد دكتوراه عن أبى القاسم الشابى .

ولعله كان على السيد « س.م » ان ينتبه لاحد الدارسين ، ليسأله ماذا ترك احدهما للآخر من جوانب أو فجوات ، سوف لن يتناولها بالدراسة وهى تصلح لاعداد دكتوراه ثانية ، فى بلد واحد ، وعن شاعر واحد ، وفى فترة زمانية واحدة ومن زميلين يدرسان فى كلية واحدة . اذا عرفنا أن انتاج « الشابى » المنشور ديوان شعر واحد هو « اغانى الحياة » ومحاضرة عن « الخيال الشعرى عند العرب » طبعت فى كتاب صغير ، ثم مذكراته طبعت تحت عنوان : «مذكرات الشابى» ومقدمة كتبها لديوان «الينبوع» لصديقه المرحوم «أحمد زكى ابو شادى» طبع بالقاهرة سنة ١٩٣٤

واخيرا بعض رسائل بعث بها الى بعض الاذباء والاصدقاء طبعت تحت عنوان « رسائل الشابى » .

لا يفهم من هذا ، التقليل من قيمة الشابى الادبية والفنية ، او النظر اليه نظرة كمية لا كيفية . وانما من أجل التحديد ، وتوزيع الاهتام ، وحتى لا تبقى اعتباراتنا واهتماماتنا باستمرار « فردية » !. او نسمع الكلام دون الوقوف عنده لنختبر مدى قربه من مقاييس العقل والمنطق ، والدراسة العلمية .

اما عن ابنه المهندس « جلال » فكان فى الامكان الاستفادة منه — ونحن نعلم بأنه ولد قبل وفاة ابيه بتسعة شهور — لو كانت لدينا اسئلة محددة ، أو تمهيد به تظهر شخصية الاب الشاعر ، فتتجمع له عن ابيه الخواطر وتتزاحم ويتهيأ عالمه الشعورى أو «اللاشعورى» — ايضا — ليفضى ببعض الاسرار او الكوابت » أو التعليقات والتى سيكون قد استنتجها من خلال ما سمعه عن والده ، أو قراه عنه أو رويت له بطريقة ما ، وقد نعرف منها علاقة «الشابى» بمن حوله ؟ وكيف كان يتعامل مع الآخرين ؟ وكيف كانوا يعاملونه؟ لانه ليس لنا من مرجع نتأمل فيه هذا ونعود اليه الا شعره و « الحساسية » نحو ما عداه والوجوم فى شعره قاتم ، لنستمع اليه يقول فى قصيدة « الاشواق التائهة » وقبل وفاته بثلاث سنوات :

يا صميم الحياة ! انى وحيد مدلج ، تائه ، فأين شروقك!
يا صميم الحياة ! انى فؤاد ضائع، ظلمىء ، فأين رحيقك؟

يا صميم الحياة ! كم انا فى الدنيا غريب ! اشقى بغربة نفسى
بين قوم لا يفهمون اناشيد فؤادى ، ولا معانى بؤسى
فاحتضنى ، وضمنى لك — كالماضى — فهذا الوجود علة يأسى

بعد ذلك يمكن ان نخرج ببعض المعلومات من خلال تصفحنا لآثاره « مخطوطة » لدى ابنه جلال . وقد نطلع كذلك على مكتبته، وكيف كان يتعامل مع الكتب بين يديه ؟ هل يترك على صفحاتها بعض التعليقات أو الملاحظات او علامة ما ؟ . وهل نجد كتبا ضمن ما تركه منها ، تبدو لاول وهلة غريبة عن تكوينه الفكرى : « الثائر المتمرد » ومن شاعريته التى ترفض القيود والحدود .. يقول فى قصيدته « قلب الشاعر » قبل وفاته بخمسة شهور :

هنا ، ألف خضم ثائر خالد الثورة ، مجهول الحدود
هنا ، فى كل آن تمحى صور الدنيا، وتبدو من جديد

ويقول مخاطبا « الشعر » فى قصيدة « يا شعر » :

فيك انطوت نفسى ، وفيك نفخت كل مشاعرى
فاصدح على قمم الحياة بلوعتى ، يا طائرى

أما لو تم « الالتقاء » بوالدة الشابى وبزوجته ـ والاثنتان على قيد الحياة كما عرفنا ـ ولكل منهما ظل فى شعره وأثر .. فلابد كل واحدة منهما تعرف عنه بعض الاخبار او الاسرار او الحوادث أو الاقوال المأثورة . وباعتبارهما ـ كذلك طرفان متقابلان : « أم » و « زوجة » ، كنا لا محالة سنخرج ببعض الاسرار عن حياة الشابى وموته ، ومهما كانت ضئيلة .. ومن خلالها نستطيع أن نتأمل شعره وأن نحاول على ضوئها فهم وتفسير ما استعصى على ذلك .

٤ ـ نفسية سوية من خلال شعره :

نحن نعرف أن الشابى يعتز بطفولته ، ويحتفظ لها بذكريات جميلة وبمشاعر عذبة ، فيتغنى بها فى قصيدة « الجنة الضائعة » قبل وفاته بحوالى سنة ، بما لا اروع ولا ابدع . من ذلك :

قد كنت فى زمن الطفـولة ، والسذاجة والطهور
احيا كما تحيـا البلابل ، والجداول ، والزهور
لا نحفـــل ، الدنيـا تدور بأهلهـا ، أو لا تدور

كما انه يتحدث عن « الام » فى شعره بما لا يدع ريبة أو حيرة. أو شفقة ، حيث عاش حياة طبيعية مع « أمه » يجـد فيها كل ما تبذله وما تقدمه « الام » عن طواعية وتلقائية من محبة وعطف وحنان ورعاية وعناية ، وفناء فى اسعاد ابنها ، حيث يقـول فى قصيدة « قلب الام » ــ وقبل وفاته بثلاث سنوات تقريبا ــ والتى استغرقت ست صفحات فى الديوان :

اعرفت هــذا القلب فى ظلماء هاتيك اللحود ؟
هو قلب امك ، امك السكرى بأحزان الوجـــود

* * *

هـــو ذلك القلب الذى مهما تقلبت الحيـــاة
سيظل يعبــد ذكرياتك : لا يمـــل ولا يميـــل

ويقول فى قصيدة « حرم الامومة » : ــ وقبل وفاته بحوالى شهرين ــ

حرم الحياة بطهرها وحنانهـا هل فوقه حرم أجل واقدس؟!
بوركت يا حرم الامومة والصبا كم فيك تكتمل الحياة وتقدس

كذلك نجد شعره فى رثاء والده ، وعمره عشرون سنة ــ قبل وفاته بخمس سنوات ــ فى قصيدته : « يا موت » يدلنا على الود المتبادل بينهما ، وعلى المحبة العميقة المقدسة بين « الابن وابيه » الى درجة أنه رام الموت وتمناه بدل ان يعيش يتيما محروما من ابيه ، لانه كل شىء فى حياته فهو : حبه ، وموطن سره ، وغابه ،

ومحرابه ، وأغنيته ، وفجره ، وعمدته ومشورته فى كل أمر ، ودرعه الواقى كل شر ، وهو الوجه الذى لا يعبسه ولا يكدره الا رؤية ابنه حزينا .

يا موت ، قد مزقت صدرى وقصمت بالارزاء ظهرى
وفجعتنى فيمن أحب ومن اليه ابث سرى
واعده : غابى ، ومحرابى ، وأغنيتى ، وفجرى
ورزاتنى فى عمدتى ، ومشورتى فى كل أمرى

ان شرح هذا وتحليله يطول ، وهو فى نفس الوقت بين وواضح على ان علاقة « الشابى » بأبيه طبيعية ، تخلو من « العقد » ومن انواع « الكبت » بل انه يرى : « ما اشقى الذى يقضى الحياة بمثل امره » !!

كذلك نجد نظرته الى « المراة » ـ فى شعره ـ نظرة واعية ، فهو يحبها بقلبه وبفكره وبحواسه ، وبفنه .. فلا تعثر على معنى « الاحتقار » أو سقطة من سقطات « رد الفعل » أو حركة أو اشارة تبين عن عقدة من « العقد » تجاهها لسبب من الاسباب مثلما نجد عند بعض الكتاب والشعراء والفلاسفة ، قديما وحديثا ، ولن نتورط فنقول : لانه عرف « المراة » معرفة نظرية مجردة ، قبل زواجه ، فاحب المراة « المثال » وتغزل بها فى المراة عموما .. لان هذا القول يدحضه شعره ، حيث انه فى قصائد كثيرة يتحدث عن نساء معينات ، لكل واحدة صفات وسوف اكتفى هنا بالاشارة الى قصيدة « الساحرة » ـ ولعلنى أرى فيها زوجته ـ كتبها بتاريخ ١٩جويلية ـ يوليو ١٩٣٢ وكانت وفاته يوم ٩ أكتوبر١٩٣٤ يقول فيها :

راعها منه صمته ووجومه وشجاها شحوبه وسهومه
فامرتكفا على شعرهالعارى برفق ، كانها ستنيمه

واطلت بوجهها الباسم الحلو على خده وقالت تلومه :
خل عبء الحياة عنك وهيا بحيا، كالصبح، طلق اديه .

لعلنا قد اتفقنا ـ من خلال شعره ـ على احساسه السوى ، ووجدانه الانسانى ومشاعره « الطبيعية » ـ كفنان وشاعر فى نظرته الى ما ومن حوله ـ فلم نلحظ ضيقا او تبرما او شكوى من « أشياء » أو « تصرفات » أثارته ، وتركته يحتفظ بذكريات مؤلمة أو مثبطة تجاه : طفولته ، أو علاقته بأبيه او بأمه او بمن عرفهن او احبهن من « الجنس الآخر » بما فى ذلك زوجته .

ولا اعتقد ان حديثه عن هؤلاء جميعا ، جاء مطابقا لما يجب أن يكون فى ذهنه وفى خياله واحلامه من سمو وقدسية ونموذجية ومثالية ، وهو الشاعر الرومانتيكى . فصب تلك « الصور » او « النماذج » فى هذه القوالب من النغم .. حيث تكون نظرة الشاعر باستمرار وتقديراته ميالة الى النموذج والمثال .. وبذلك فحسب يكون اقتناعه .. فعالم الخلق والابداع لديه يستأثر به « المثال » فى الحسن والقبح « الفنيين » فهو يصور ما يجب ان يكون ، أو ما يجب ألا يكون .

لهذا سوف تبقى معرفتنا او اطلاعنا بمن أو بما حوله محدودة، وواحدية المصدر ـ الذى هو شعره فقط ـ الامر الذى يجعلنا غير مطمئنين الى تلك « الاستنتاجات » حتى تظهر مصادر أخرى مع شعره تؤكد لنا او تضيف ما يمكن اضافته الى معارفنا عنه .

٥ ـ مصادر شاعريته :

المؤثرات ـ وقد اقول المصادر ـ لشاعريته غير مكتملة الوضوح « علميا » أو « موضوعيا » بالاضافة الى انفراده بذلك عن اقرانه

ومعاصريه و « اخوته » وقد كانت وسائل المعرفة والاطلاع لديهم اكثر تنوعا ، ولا اريد ان اتطرق هنا الى ما يسمى « الموهبة » او «الالهام» .. اذ ليس ذلك اكثر من « استعداد » او « ميل » ينمو بالرعاية والعناية ويخبو بالاهمال .. وأمام هذا تتراجع تل الافكار التي تزعم أن الاديب انسان ملهم ، توحى اليه الآلهة (*) او الشياطين (**) بشعره .

اذن فما هي « الرعاية » او « العناية » التي كان يلقاها « الشابي » والتي خلقت منه شاعرا عبقريا ، لان بعضهم يوعز بشيء من شاعريته الى تأثير « الطبيعة » الجميلة في تونس ، وهذا نسري على غيره فلماذا لم يزهر شعرا ؟! وآخرون يضيفون الى ذلك « تأثره بأدب المهجر » وهذا ـ ايضا ـ شمل غيره فلماذا لم يثمر ادبا ؟! وعندئذ نقول كذلك : لكتابه « الخيال الشعري عند العرب » اتصال بكتاب: « الفربال » لميخائيل نعيمه ، ولكننا نلحظ للشابي شخصيته واصالته وتفرده مما يجب بحثه في مكانه .

وهل نقول كذلك : ان « الالم » ساهم في خلق عبقريته الشعرية ، وامدها بالعمق والتفرد والشفافية المتوغلة في الصوفية احيانا . فكانت بمقام « التعويض » او الدافع ويضيق المجال لو أشرنا الى نتائج النقاد والعلماء في اتصال « العبقرية بالالم » ولكني سأذكر مثالا واحدا له اتصال مباشر بالعبقرية والالم ـ وليس كدارس ملاحظ في غيره من بعيد ـ ذلك هو الكاتب القصصي المسرحي « انطون تشيخوف » (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) عانى « الالم » في نفسه وفي غيره ـ كان طبيبا ومات بداء الصدر ـ وانصرف للادب والفن فترك تراثا ضخما ، ظهرت فيه عبقريته .. وقد عالج

(*) عرف ذلك عن قدماء اليونان .

(**) عرف ذلك عن شعراء العرب .

فى مسرحيته : « النورس » (١٨٩٤) : مشكلة العوامل التى تخلق الفنان الموهوب ، فكل من البطلين الشابين «كونستانتين» و «نينا» يحاول النجاح فى مضمار خاص من الفن .. هذا فى الكتابة ، وتلك فى التمثيل .. والامر المهم فى نظر تشيخوف هو مثابرة « نينا » فى طريقها الى النجاح ، فهى تتحقق أخيرا من أن « الالم » هو الذى يخلق الفنان المبدع ، لانه يكون عنده قدرة على الاحتمال تمكنه من متابعة سيره وتحقيق أهدافه .. » تقول « نينا » : « ان ما يهمنا سواء كنا كتابا أو ممثلين ليس هو الشهرة أو التألق أو تحقيق الاحلام ، وانما هو القدرة على التحمل . تعلم كيف تحمل صليبك وتحتفظ بايمانك » .

ونلاحظ هنا ليس المقصود بالالم ـ فقط ـ ما كان سببه المرض والعاهات ، بل هو كل ما يثير ثورة فى النفس فيتحرك « الانسان » أو يستعد ـ فكريا ووجدانيا ـ ليبدع وينشىء أو يغير ما كان راكدا وجامدا . وقد يكون «تطهيرا» ـ كما أشار ارسطو ـ ذلك الاثر الفنى لمبدعه أو لمتلقيه .

٦ ـ نقمته وتمرده :

مما تقدم يطرح من جديد : قضية نقمة الشابى وتمرده :

يا ربة الشعر والاحلام غنينى ... لقد سئمت وجوم الكون من حين
على الحياة أنا ابكى لشقوتها ... فمن اذا مت يبكيها ويبكينى؟
ياربة الشعر، غنينى فقد ضجرت ... نفسى من الناس أبناء الشياطين

وهكذا هرب الى « الطبيعة » لان الواقع البشرى البائس لبنى قومه يضيق عن أحلامه وأفكاره وأمانيه ، شأنه شأن الرومانتيكيين :

يا لها من معيشة فى صميم الغاب ... تضحى بين الطيور وتمسى !

يا لها من معيشـــة ، تدنسها نفـوس الورى بخبث ورجس
كان فى كوخه الجميل مقيمـا يسأل الكون فى خشوع وهمس
عن مصب الحياة ، اين مداه؟ وصميم الوجود ، أيان يرسى؟

وقد راى نفسه « النبى المجهول » فوقف خطيبـا ـ يذكرنا بالحجاج بن يوسف فى اهل العراق :

ايها الشعب! ليتنى كنت حطابا فاهوى على الجذوع بفاسى !
ليتنى كنت كالسيول اذا سالت تهد القبور رمسـا برمس !
ليتنى كنت كالرياح ، فاطـوى كل مايخنق الزهور بنحسى !

لانهم « لم يفهموا اناشيده ولا معانى يؤسه » .

لكن حبه لشعبه ولامته ووطنه ، ثم احساسه العميق بالحقيقة، وما لذلك من تأثير على قلبه ووجدانه .. نثر أمامنا وأمام نفسه المتألمة « الاسباب » التى أحدثت تلك « الهوة » بينه وبين شعبه ـ حتى يبرى نفسه من الحقد والضغينة وتبقى النقمة قائمة ـ فخطب وقد تأسى لنفسه وتألم متفردا :

ايها الشعب! انت طفل صغير لاعب بالتراب والليل مغس !
انت فى الكون قوة لم تسسها فـكرة عبقـرية ، ذات بأس
انت فى الـكون قـوة كبلتهـا ظلمات العصور من امس امس.
والشقى الشقى من كان مثلى فى حسـاسيتى ورقـة نفسى

لقد كانت له الثقة بالشعب ، فكتب سنة ١٩٣٣ ـ وقبل وفاته بسنة تقريبا ـ قصيدة « ارادة الحياة » وهى أروع ماكتب الشابى :

اذا الشعب يوما أراد الحيـاة فلا بد أن يستجيب القـدر
ولا بـد لليـل ان ينجلى ولا بـد للقيـد أن ينكسر
اذا طمحت للحيـاة النفوس فلا بد أن يستجيب القدر !

٧ ـ احساس بالبيئة والعصر .. وظهور « الفردية » :

لقد كان الشابى معبرا عن عصره ومتفاعلا معه ، ومع بيئته . فرصد عن قرب : الظلم والتضليل اللذين كانا يحكمان شعبه ، ويرهقان وجوده : الاستعمار الفرنسى والرجعية ـ ومن ارتبطت ارتبت مصالحه بهما ـ فنشرا الجهل والمرض والفقر . . وعندئذ لابد من ظهور « العبقريات الفردية » وقد تجمع فيها أو نما ما افتقد أو اخمد ـ للملابسات وظووف ـ فى الآخرين .. ذلك لانه أوان ظهورها ، فكان « الشابى » عبقرية فردية فى مجاله ـ مثلما وجدت عبقريات فردية ، أخرى فى مجالاتها ـ وحينئذ تجد هذه الفردية فرصتها فى الالتفاف حولها ـ أو الخروج عليها ـ وهكذا تكتسب « المحورية » فى قرارة نفسها ولدى الآخرين .

والقيادة الفردية أو الانقياد للفردية ، ظاهرة عرفها الانسان منذ شروعه فى البحث عن « اله » يحتمى به ، ويقدم اليه القرابين، متى رأى فيه جانبا من جوانب القوة أو العظمة أو عجز عن تصوره أو الاحاطة به ، لان « البطولة الفردية مهما يتنوع مدلولها فانها لا يمكن أن تتفق مع الحتمية العلمية » هى بعد ذلك تشد الانظار والعقول والقلوب ـ أحيانا ـ اليها وتسد المعالم وانطرق عن اكتشاف آخرين ، وقد تنتهى ظروفها قبلها ، لكنها تبقى قائمة مسيطرة على تفكيرنا وسلوكنا ، مع تطور الزمن وتقدمه ، وتغيره، وقد تصبح من « الثوابت » لكل عصر ، لان « المطلق » و « المثال » و « الفرد » يشد انتباهنا أكثر من غيره !. ولاننا عندما نحاول بحث الظاهرة نخرج بها عن اطارها الحقيقى ، ونعطيها تعميمات تنسينا الدقة معها ، ونتخاذل فى البحث عن الجذور متسرعين الى السطح ، فتكون المفاهيم أو « النتائج » ذاتية تأثرية ، ولذلك تبقى « الظاهرة » باستمرار تملأ علينا حياتنا ، لانها لم تستوف حقها، بحثا وموضوعية .

ومن هناك يكثر تعدد أو تعاقب الباحثين ـ وبتسمية ادق ـ المتكلمين عن تلك الظاهرة مع عدم التوصل الى نتائج جديدة أو هى ذات اهمية ..

٨ ـ خاتمة : فى منهج لدراسة « المبدع » :

رايت أن اختم ملاحظاتى بالاشارة الى مذهب « سانت بيف » « ١٨٠٤ ـ ١٨٦٩ » فى النقد أو البحث الادبى ، حيث « .. دعا الى دراسة علمية تقوم على بحوث تفصيلية لعلاقاتهم بأوطانهم وامهم ، وعصورهم ، وآبائهم ، وامهاتهم ، واسرهم ، وتربيتهم ، وامزجتهم ، وثقافاتهم ، وتكويناتهم المادية والجسمية ، وخواصهم النفسية والعقلية وعلاقاتهم بأصدقائهم ومعارفهم ، مع التعرف على كل ما يتصل بهم من عادات وافكار ومبادىء ومع محاولة تبين فترات نجاحهم واخفاقهم ، وجوانب ضعفهم وكل ما اضطربوا فيه طوال حياتهم فى الغدو والرواح وفى الصباح والمساء » .

وقد حدد « سانت بيف » منهجه بقوله : « .. والمسألة الجوهرية .. هى الاحاطة بالانسان وتحليله فى اللحظة التى تضافرت فيها عبقريته وثقافته وكل ظروفه الاخرى ، فجعلته ينتج كتابه القيم ، فاذا فهمت الشاعر فى هذه اللحظة ، واذا حللت هذه العقدة التى فيها يتجمع كل شىء فى نفسه ، واذا وجدت مفتاح هذه الحلقة الغامضة التى تربط وجوده الثانى المشع المتألق الجليل بوجوده الاول الغامض المنزوى المتوارى الذى قد يرد الشاعر محو ذكراه ، آنذاك يمكن أن يقال انك نفذت الى جوانب شاعرك وانك على علم به . »

ويقول عنه الدكتور غنيمى هلال فى كتابه « الرومانتيكية » : « وسانت بيف » يعتمد على ملحوظاته الدقيقة فى حياة الانسان

ليفسر بها انتاجه . ويبين أى نوع من الناس هو ، واثر حالته الطبيعية او المرضية ، ودلالة الصور التى يستعملها على استخدامه لحواسه وقواه .. فالنقد على حد تعبيره : « يعلم الآخرين كيف يقرأون ؟ » ثم على النقد بعد ذلك أن يتجاوز القيم الجمالية الى بيان روح العصر من خلال نفسية المؤلف » .

وقد تردد كثيرا فى شعر الشابى (١٩٠٩ ـ ١٩٣٤) ذكر المرض والموت والحب والحياة .. لكنه أتى فى أوانه ومات فى أوانه بعد ان قال كلمته : ـ وعمر الانسان لا يقاس بالسنوات ، بل بأشياء أخرى كثيرة ـ :

اذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلى ولا بد للقيد أن ينكسر

* * *

ان ذا عصر ظلمة غير أنى من وراء الظلام شمت صباحه

تونس ١٩٧٦

* * *